كتب الرحلات ودورها في توثيق تاريخ أفريقيا الإسلامية جنوب الصحراء

أ.طيب بوجمعة نعيمة
جامعة ابن خلدون تيارت

خلق الله الإنسان محبا للحركة والتنقل، وأمده بالعقل الذي يدعوه لذلك، وتشير كتب التاريخ الطبيعي والأنثروبولوجيا وغيرها إلى أن الإنسان لم يتوقف عن الحركة والتنقل، حيث ظل على مدى العصور والقرون يتطلع بعينيه إلى الآفاق البعيدة، ولا يكف عن التفكير فيما تضمنه من الخلق والموجودات وفيما تحمله من الكنوز والخيرات. لقد تعددت الرحلات وتنوعت أشكالها ودوافعها ولكن تبقى المسالة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدوافع الرحالة نفسه[1]. وهنا نستعين بما قال المسعودي في هذه المسألة: "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه"[2]، وعليه يمكن اعتبار الرحلة من أكثر المجالات التي تزيد الإنسان معرفة وثقافة[3].

لقد تميز الرحالة العرب المسلمين بكثرة رحلاتهم. وترجع أهمية هذه الظاهرة الحضارية إلى أنها من الممارسات التي أكد عليها الدين الإسلامي، والذي طالب معتنقيه بالرحلة في سبيل العلم والمعرفة. ويبين عالمنا الفذ ابن خلدون أهمية الرحلات في مقدمته، حين كتب يقول: "الرحلة لابد منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[4].

واختلفت كتب الرحالة في مسمياتها عبر مراحل تطور هذا العلم خلال مراحل ازدهارها، إذ نجد هناك من أطلق على مؤلفه اسم "سفرنامة"، وأحياناً يسمى "مسالك"، حتى استقر الأمر في نهاية المطاف على مسمى "الرحلة". ويصف المستشرق الروسي إغناطيوس كراتشكوفسكي بدأت مرتبطة بالحج لكن أشكالها تطورت تدريجيا لتأخذ أبعاد أخرى، وكتب يقول:"دونت على هيئة مذكرات يومية مع تفاوت في الدقة فيما يتعلق بتدوينها من يوم لآخر، وكثيرا ما ارتبطت هذه الرحلات بالحج، ولكن هذا لا يعني أن الحج كان يمثل دائما المكانة الأولى فيها"[5]. وشهدت الرحلات الجغرافية نموا كبيرا في أوساط العلماء المسلمين، لما قدمته من معلومات ذات أهمية كبيرة في تعريف المسلمين بعوالم بلادهم والمناطق المجاورة لهم الأمر الذي

ساهم في شيوع هذا النوع من الرحلات منذ أواخر القرن الثالث الهجري، ووضع العلماء العرب المسلمين قواعد ومنهج في التدوين وذكر المعلومات.

إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن الرحلات الجغرافية شهدت منذ أواخر القرن الثالث الهجري تصاعد معدلاتها وأغراضها، حالها حال بقية الميادين العلمية الأخرى التي شهدت تطورا في عصر ازدهار التأليف والتدوين في العصر العباسي، وككل عمل إبداعي لم يكن هذا النوع من التأليف ذا منهج علمي دقيق في بواكيره، إذ ينقصه التنظيم العلمي. فقد كان الأوائل يدونون معلوماتهم من غير تنظيم أو تدقيق، ويخلطون وصف الأقاليم بغيرها. وهنا نستعين بتعليق المقدسي على نتاجات الأوائل، وإظهار فقدانها للمنهجية العلمية المطلوبة، من خلال انتقاده كتاب "البلدان" لابن الفقيه الهمذاني بالقول: "ورأيت كتابا صنفه ابن الفقيه الهمذاني في خمسة مجلدات، سلك طريقة أخرى ولم يذكر غير المدائن العظمى ولم يرتب الكور والأجناد، وأدخل فيه ما لا يليق به من العلوم"[6].

وشهد القرن الرابع الهجري ظهور رحالة أكثر تمرسا ودراية بالأسس التي يجب اتباعها في توثيق المعلومات وتقديمها للقارئ، ومن أهمهم المسعودي مؤلف كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر"[7]، أما الإصطخري فقد كان أحد المبدعين في هذا الميدان، إذ ألف كتابين هما: "صورة الأرض)" و"المسالك الممالك". وسرعان ما نرى هذا الفن يرقى على أيدي عدد كبير –من-، ويأخذ منهجاً دقيقاً ففئة نظمت كتبها على أساس التعريف بالأماكن، مرتبة ترتيباً معجمياً كياقوت الحموي والبكري. وفئة اتخذت منهج مسح الأرض مسحاً جغرافياً منظماً كما فعل ابن حوقل في "صورة الأرض". على أن الفئة العظمى هي التي ألفت كتب رحلاتها على أساس الأقاليم، واستعراض دقائق كل إقليم على حدى، كما فعل القزويني في "آثار البلاد وأخبار العباد" بشكل موسوعي[8]. وعلى ذات المنهج كان ابن فضل الله العمري، إذ قسم كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" إلى أسفار. وقد بدأ تأليف كتابه هذا سنة 738هـ، واستمر على تأليفه حتى سنة وفاته ومات ولم يتمه. واعتمد في تصنيفه على من سبقه من المؤلفين ولاسيما ابن سعيد المغربي، ومصادر أخرى خطية وشفهية ولاسيما من زاروا تلك الممالك. وتأتي أهمية كتابه في أنه ذكر مصادر تعد من النصوص المهمة المفقودة الآن.

ومن خلال ما سبق، نستطيع القول أن كتب الرحلات مرت بمراحل تطور طبيعية ومنطقية، ساهم فيها الرحالة العرب المسلمين من أهل المغرب الإسلامي، إذ على الرغم من

دخولهم هذا الميدان على استحياء منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بعد أن كان مقتصرا على الرحالة المشارقة، الا أنهم تمكنوا من فرض وجودهم من خلال أهمية الأعمال التي قدموها، والمناهج التي اتبعوها في جمع المادة وتدوين المشاهدات، بما يعد نقله حضارية كبرى في ميدان الرحلات. ولا يمكن هنا إغفال ما قدمه الرحالة أبو حامد الغرناطي من إضافات كبيرة في تطوير الرؤى التي يوثق من خلالها الرحالة معلوماته، وبهذا الخصوص كتب المستشرق كراتشكوفسكي عنه قائلا: "ومن المستحيل تجاهل الغرناطي في تاريخ الأدب الجغرافي العرب، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهور القراء؛ لأن المنهج الذي ابتدعه في الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة في وحدة كوزموغرافية قد راق كثيرا للأجيال التالية...وقد خمن أبو حامد الغرناطي تخمينا صحيحا حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات، ومنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما يلازمه من عنصر الغرائب محببا إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص"[9].

وقد بلغ هذا اللون من التأليف قمة العطاء والإبداع على يد علي بن موسى المعروف بـ"ابن سعيد المغربي"، فقد كان عالماً في ميدانه، دقيقاً في تصنيفه، وقد ساعده في ذلك أمور كثيرة، منها:

1. تنوع مصادره ومعلوماته، والتي تمثلت في الكتب، الروايات الشفوية والمشاهدة، وهذه المصادر الثلاثة مجتمعه تعطي مصنفات ابن سعيد أهمية بالغة[10].
2. كثرة اتصالاته ورحلاته ساهمت في تميز كتابته في ميدان الرحلات، ويعلق محمد جابر الأنصاري على هذه المسألة بالقول: "والرحلة في بيئات متباينة تدفع المرء إلى التأمل والمقارنة وبالتالي إلى استخراج العظة والعبرة التي يؤدي التوصل إليها بهذا الطريق العلمي إلى تحقيق نضج عقلي وسعة إدراك وفهم مقترن لكثير من مظاهر المجتمع وطبائع الناس"[11].

وتمكن ابن سعيد المغربي نتيجة الذهنية العلمية والمقدرة الأدبية والقدرة على التنقل من وضع العديد من الكتب في الرحلات والجغرافية، ويأتي كتاب: "بسط الأرض في الطول والعرض" في مقدمتها، ويدل عنوان الكتاب على أنه مسح للأرض المعمورة كلها، وقد دل حديثه المطول عن بعض بلاد السودان، على أنه عالم جغرافي ورحالة في غاية الدقة؛ فهو يصور الأرض التي يراها أو يدرسها، كما يفعل ابن حوقل في "صورة الأرض" بل أدق منه بكثير. وكتابه هذا أشهر الأسماء وروداً واعتماداً في كتب المشارقة والمغاربة على السواء ومعظمهم نقلوا عنه، وهو

في بسطه لبعض أراضي السودان يدل على أنه جغرافي أكثر من كونه رحالة سائحاً؛ فهو لا يكاد يشرح ما يشرحه مؤلفو الرحلات من وصف لطبيعة البلاد، وللأمم، وعاداتهم، وما يتهمون له، ويختصون به. فهو يساير قارئه في الطريق التي يسلكها، ويحدد له موقع كل بلدة وقرية ونهر ورافد، ويذكر له مواقعه من خط الاستواء وما يقع دونهما أو بعيداً عنها[12].

أما الإدريسي صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" فقد أضاف الكثير إلى منهجية البحث العلمي الجغرافي، لاسيما وأنه امتاز بقدرته على التفطن الشديد لكل ما تقع عليه العين من إنسان وجماد وحيوان ونبات، وهذا جعل من كتابه وبقية أعماله الجغرافية الأخرى تحضى بالاهتمام والعناية من قبل الكتاب والرحالة العرب المسلمين والأجانب[13].

لم يتوقف تطور كتب الرحلات وإبداع الرحالة العرب المسلمين في المشرق والمغرب الإسلامي عند حدود الانجازات السابقة، وإنما شهدت تطورا ملموسا عزز من أهميتها في تقديم المعلومات والإحصائيات الدقيقة للمؤرخين في كتاباتهم. واعتبرت هذه الكتابات إحدى مرايا الحضارة العربية الإسلامية، ولا يمكننا هنا تجاهل الدور الذي لعبته الكتابات التي قدمها رحالة عرب مسلمين من أمثال: ابن خلدون والحسن الوزان وغيرهما من الرحالة الذين حافظوا قيمة الدور الذي تقدمه نتاجاتهم من معطيات تفيد فير توثيق تاريخ المناطق التي كتبوا عنها [14].

ومن أبرز الخصائص التي يمكن تسجيلها على كتب الرحلات أنها تعتمد على اجتهاد ورغبة الرحالة في ذكر ما يريد وحذف ما لا يريد، إذ على الرغم من أن كل رحالة يشرح كل ما توصّل إليه من معلومات جغرافية وعامة، فإنه يظل قاصراً، ولاسيما حين نرى غيره قد ذكر أشياء لم يتوصل إليها الآخرون حتى الذي يطيل الشرح جداً كالعمري وابن سعيد المغربي، فإن عمله يتصف بالنقص أمام من يوجز أحياناً مثل إسحاق بن الحسين، فالرحالة يكتب ما يستهويه، ويدون ما يراه أو يسمعه. ولهذا فإن صورة أي إقليم لا تكتمل إلا بقراءة جميع ما كتب عنه أو معظمه. وهناك نقاط أساسية لا يكاد الرحالة يحيد عنها، من ذلك تعريف بالمصر أو البلد، ونوع محاصيله، وما يشتهر به القوم، وأهمّ ما يلفت نظره أو نظر المشاهد الذي يروي عنه.

وبناءا عليه، إن كتب الرحلات في أساسها تعبر عن مشاعر تختلج فى نفس الرحالة تجاه كل ما يراه ويعايشه ويقرأه عن ملامح بلد يزوره بعادات وتقاليد سكانه، وخلفيته السياسية والثقافية والاجتماعية وأحداث يعايشها ومواقف تأثر بها، وهموم عانى منها في ذلك البلد طالت

أم قصرت مدة إقامته فيها، والتعبير عن كل ذلك بأسلوب شيق يغري القارئ بمواصلة القراءة من أول لآخر سطر دون ملل أو كلل [15] . ولكن هذا لا يعني بطبيعة الحال، من أن يكون الرحالة العربي المسلم بالضرورة أديبا يجيد التعبير بأساليب أدبية، وإنما كان يهوى السفر والترحال، ويحفظ مشاهدته في ذاكرته.

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار مقدار الجهد والوقت الذي يبذله أثناء رحلته، فالرحلة في الماضي كانت تكلف الرحالة جهدا وتعبا شديدا ووقتا طويلا قد يصل إلى أسابيع وشهور للوصول إلى غايته، والأكثر من هذا كان على الرحالة مهمة أكثر صعوبة من ترحاله، وهي تدوين مشاهداته عن المناطق التي زارها اعتمادا على قدراته الذهنية في خزن تلك المعلومات والمشاهدات [16].

ومن النادر أن نرى رحالة زار كل مناطق الصحراء وبلاد السودان أو معظمها، وهذا أمر بديهي لأنها بلاد واسعة جداً، وقد اعتمد كثير منهم على الرواة، الدعاة، والتجار ومعظمهم نقل عن غيره، وعلى سبيل المثال نجد القزويني وصف الصحراء نقلاً عن ياقوت الحموي، وياقوت نقل ما سمع، ومعظمهم أخذوا عن ابن سعيد المغربي الذي كان ابن فاطمة راويته، والمؤرخون ختموا كتب غيرهم، وغيرهم فعل فعلهم إلا من بعض إضافات تميز بها واحد عن الآخر، أو خرافة سمعها فأحب أن يملّح يفصله بها.

وفي السياق ذاته، نستطيع القول من أنه لولا الرحالة المغاربة لكانت معلوماتنا عن بلاد السودان ضئيلة وضحلة، ومن أهم الرحالة المغاربة نذكر: الإدريسي، ابن سعيد المغربي، ابن بطوطة، أبو حامد الغرناطي والحسن الوزان وغيرهم، علما أن بعضهم من ذوي الأصل الأندلسي نادراً ما كتبوا عن بلاد السودان على سبيل المثال البكري في كتابه "معجم ما استعجم"، إذ لم يذكر شيئاً عن هذه البلاد في حين أن بعض الرحالة قصّر في ذكر معالم بلاد السودان، مثل: ياقوت الحموي؛ فهو لم يذكر من بلاد السودان وأواسط إفريقية إلا القليل غير المجدي؛ فهو لم يذكر مملكة مالي ولا بلاد الحبشة، وذكر غانة ببضعة أسطر، وذكر بلاد التكرور بثلاثة أسطر غير ذات فائدة، ومعظم ما ذكره كان حول حملة ابن أبي سرح ولم يفصّل إلا في "بلاد التبر".

وعلى أية حال يمكن اعتبار كتب الرحلات من المصادر التاريخية التي تشكل إطاراً مرجعياً مهماً، ومادة أساسية يستقي منها الباحث معلوماته لتوثيق تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ويمكن القول أن كتب الرحلات هي مصادر لا غنى عنها لأنها تكمل الكتابات التاريخية

حول المنطقة. ولعل أبرز دور قامت به كتب الرحلات أنها قدمت معلومات متنوعة منها: الجغرافي والتاريخي والاجتماعي وغيرها من المعلومات التي ساعدت على التعرف على معالم مناطق بلاد السودان على امتدادها الطويل. فقد نجح الرحالة العرب المسلمون من خلال كتاباتهم في تقديم صورة قلمية عرف من خلالها العرب والمسلمون الكثير عن بلاد السودان وخباياها، وما جرى فيها من أحداث تاريخية، وكانت أسماء مثل: مالي، غانة، النوبة، بجاوة، التكرور، الحبشة، دنقلة، بلاد التبر، البجة، وغيرها من المدن والمناطق معروفة ومتداولة في المشرق والمغرب الإسلاميين.

على العموم، اعتبر الرحالة العرب المسلمين بلاد السودان رحب واسع فضفاض، وكانوا يطلقونه على معظم القارة الإفريقية ولاسيما أوسطها، وهم حين يتكلمون على السودان يبدؤون بالمساحة الكبرى من المحيط الأطلسي إلى حوض النيل، ثم يأخذون بالحديث عن البلاد بلداً بلداً أو إقليماً إقليماً جغرافياً، وطبيعياً، واقتصادياً، واجتماعياً. ولعل الإصطخري أقدم من أشار وكتب عن بلاد السودان، إذ كتب في مقدمة كتابه "المسالك والممالك" معللا عدم تناوله وصف تلك البلاد، بالقول: "ولم نذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن أعراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال، ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك، غير أن بعض السودان المقاربين لهذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم، ويقاربون أهل هذه الممالك مثل النوبة والحبشة، فإنهم نصارى يرتسمون بمذاهب الروم، وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة، لأن أرض النوبة متاخمة لأرض مصر والحبشة على بحر القلزم، بينما أرض مصر مفازة فيها معدن الذهب، ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم، فهذه الممالك المعروفة وقد زادت مملكة الإسلام بما اجتمع إليها من أطراف هذه الممالك"[17].

لقد اتفق غالبية الرحالة العرب المسلمين على كبر مساحة بلاد السودان، ولكنهم اختلفوا في تقدير مساحتها؛ فبعضهم يراها مسيرة سنة طولاً ومسيرة سنة عرضاً، وآخرون يجعلون المسيرة ستة أشهر، وفئة تراها ثلاثة أشهر. وهذا الاختلاف مسألة طبيعية تأتي من كون تقديراتهم مرتبطة بطبيعة الوسائل التي تنقلوا بها والطرق التي قطعوها، زد على ذلك أن الاختلاف ناجم عن تصويرهم لمناطق دون أخرى مما تيسّر لهم معرفتها، أو أنه ناتج عن حالة

الخلط التي كان عليها الرواة. وهنا نذكر وصفا جغرافياً أولياً قدمه لنا الاصطخري في كتابه عن طبيعة بلاد السودان، بالقول: "وبلدان السودان بلدان عريضة إلا أنها قفرة قشِفة جداً"، ويحدد مساحته، فيقول: "يمتدون إلى قرب البحر المحيط مما يلي الجنوب، ومما يلي الشمال على مفازة تنتهي إلى مفاوز مصر من وراء الواحات، ثم على مفاوز بينها وبين أرض النوبة ثم على مفاوز بينها وبين أرض الزنج وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب، لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم"[18].

كما يذكر من جغرافية بلاد السودان عند حديثه عن مجرى نهر النيل، إذ يشير الى ان منابعه تقع ما وراء بلاد السودان، حيث كتب يقول: "أما النيل فإن ابتداء مائه لا يعلم، وذلك أنه يخرج من مفازة من وراء أرض الزنج لا تسلك، حتى ينتهي إلى حد الزنج ثم يقطع في مفاوز وعمارات أرض النوبة فيجري في عمارات متصلة إلى أن يقع في أرض مصر"[19].

أما ابن الفقيه في كتابة "مختصر كتاب البلدان" فهو يقدم معلومات عن كبر مساحة بلاد السودان ومقاربتها مع المناطق المجاورة لها، حيث يقول: "قالوا أرض مصر محدودة في الكتاب، إنها مسيرة أربعين ليلة في مثلها وأرض السودان مسيرة سبع سنين، فما فضل عنها من مائها صار إلى مصر، وأرض مصر جزء من ستين جزءا من أرض السودان، وأرض السودان جزء من ستين جزءا من الأرض"[20]. وفي موضع آخر، كتب يقول: "وقالوا الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ منها السودان اثنا عشر ألف فرسخ، والروم ثلاثة آلاف فرسخ وفارس ثلاثة آلاف فرسخ وأرض العرب ألف فرسخ"[21]. وهكذا، نجد ابن الفقيه ينقل القارئ من فكرة إلى أخرى نقلاً عمن شاهد تلك البلاد، من غير أن يذهب إليها بنفسه وأتى بآراء ومعلومات قريبة من الصدق، فيها الكثير من الجدّة والندرة وأيضاً نقلاً عن مشاهد زائر.

بينما يذكر لنا ابن حوقل في كتابه "صورة الأرض" وصفا للطبيعة الجغرافية التي كانت تتصف بها منطقة الصحراء وتأثيرها على طرق المواصلات والتنقل ما بين المغرب الاسلامي وبلاد السودان الغربي، فعلى سبيل المثال هو يصف المناطق التي تمر من خلالها طرق القوافل المتنقلة ما بين المغرب الاسلامي والسودان الغربي، فيقول: "وبين المغرب والبلدان التي قدمت ذكرها وبلد السودان مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه متعذرة المراعي، ولا تسلك إلا في الشتاء وسالكها في حينه متصل السفر دائم الورود والصدر"[22]. وفي موضع آخر يشير إلى أنها: "تكون بين دَبَرته وبلاد الزنج براري عظيمة ورمال كانت في سالف الزمان مسلوكة"[23]، كما أشار إلى مواضع بعض

الممالك وموقعها على الخارطة الجغرافية، وعند وصفه للأراضي الواقعة بين مصر وغانة، كتب يقول: "وإذا جاوزت بلاد غانة إلى أرض مصر انتهيت إلى أمة من السودان يقال لها كوكو ثم إلى أمة يقال لها مرندة، ثم إلى أمة يقال لها مُراوة ثم إلى واحات مصر"[24]. فهو يسير بحديثه عرضاً من غانة غرباً إلى مصر شرقاً، ولم يعتبر غانة من بلاد السودان. وهذا تحليل جغرافي مهم لمؤرخ رحالة ألف كتاباً صغيراً في غاية الإيجاز.

وأهم ما اعتنى به زكريا بن محمد القزويني أنه حدّد مواقع بعض مناطق السودان الشرقي، فقال: "البجة بلاد متصلة بأعلى عيذاب في غرب منه أهلها صنف من الحبش"[25]، وفي مكان آخر يقول: "بلاد الحبشة هي أرض واسعة شمالها الخليج البربري وجنوبها البر وشرقها الزنج وغربها البجة، الحر بها شديد جداً وسواد لونهم لشدة الاحتراق وأكثر أهلها نصارى يعاقبة والمسلمون بها قليل، وهم من أكثر الناس عدداً وأطولهم أرضاً لكن بلادهم قليلة وأكثر أرضهم صحارى لعدم الماء وقلة الأمطار وطعامهم الحنطة والدخن وعندهم الموز والعنب والرمان ولباسهم الجلود والقطن، ومن الحيوانات العجيبة عندهم الفيل والزرافة"[26].

كما ذكرت كتب الرحلات معلومات مهمة عن طبيعة الأنهار التي تنبع وتمر بأراضي بلاد السودان، وقدم فائدة كبيرة للمهتمين بأخبار تلك البلاد، فعلى سبيل المثال يقدم لنا الاصطخري وصفا لمجرى نهر النيل إذ يشير إلى أن منابعه تقع ما وراء بلاد السودان، حيث كتب يقول: "أما النيل فإن ابتداء مائه لا يعلم، وذلك أنه يخرج من مفازة من وراء أرض الزنج لا تسلك، حتى ينتهي إلى حد الزنج ثم يقطع في مفاوز وعمارات أرض النوبة فيجري في عمارات متصلة إلى أن يقع في أرض مصر"[27]. فيما يقدم ابن فضل الله العمري لامتدادات نهر نيل السودان (نهر النيجر)حيث يقول:"يخرج النصف الواحد من غربي البحيرة وهذا النصف هو المعروف بنيل السودان، ويستقل نهرا يسمى بحر الدمادم، يأخذ مغتربا ما بين سمغرة وغانة، على جنوبي سمغرة وشمالي غانة، ويأخذ تحت جبل في جنوبها خارج عن خط الاستواء إلى رقيله ثم يتبحر في بحيرة هناك، وتستمر الفرقة الثانية مغربة إلى بلاد مالي والتكرور حتى تنصب في البحر المحيط شمالي مدينة قلبتو. ويخرج النصف الآخر متشاملا آخذا على الشمال إلى شرقي مدينة جيمي ثم يتشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقا إلى مدينة سحرته ثم ترجع جنوبا، ثم تعطف شرقا بجنوب إلى مدينة سحرته ثم إلى مدينة مركة، منتهيا في العود هناك إلى خط الاستواء حيث يطول خمس وستون درجة علم عليها في لوح الرسم ويبحر ببحيرة هناك"[28].

ولم يتوقف الأمر عند حدود المعلومات الجغرافية، وإنما نجد أن الرحالة العرب المسلمين لم يتركوا شيئا يثير اهتمامهم لم يذكروه، ومن جملة ما ذكره هؤلاء من معلومات عن بلاد السودان، المعلومات التي تضمنها كتاب العمري "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، ويحتل العمري مكانة مرموقة بين كتاب الرحلات العرب المسلمين، فهو من خلال كتابه لم يترك شيئاً لم يذكره عن: الملك، والعامة، والأعلام، والطبيعة، والزراعة إلى جانب أنه لم يترك كتاباً سبقه لم يرجع إليه، فقدم المعلومات كاملة تكفي من يقرؤها أن يلمّ بحال البلاد قديمها ومعاصرها له، ومن جملة ما ذكره عن بلاد السودان حديثه عن "مملكة مالي" اذ استهل حديثه في باب (في مملكة مالي وما معها)، وهو الباب العاشر في تحديد موقعها ووصف بيئتها القاسية وبيان طبع سكانها، حيث كتب يقول: "إعلم أن هذه المملكة في جنوب نهاية الغرب متصلة بالبحر، قاعدة الملك بها مدينة نياني، وهذه المملكة شديدة الحر، قشفة المعيشة، قليلة الأقوات، وأهلها طوال في غاية السواد، وتغلغل الشعور، وغالب طول أهلها من سوقهم لا من هياكل أبدانهم"[29]. كما أشار إلى أن مملكة مالي تعرف أيضا باسم "بلاد التكرور" ولكن سكانها لايحبذون هذا الاسم، لأن "التكرور" إقليم صغير من مملكتهم ويفضلون عليه اسم "مالي" لأنه الإقليم الأكبر وهو به أشهر[30]. كما أشار إلى أهم مدن هذه المملكة منها غانة، وترنكا، وسنغاي، وزاغة. ثم ينتقل إلى ذكر ديانتهم، ويشير إلى أنهم مسلمون وفي بلادهم مساجد وجوامع ومآذن[31]. ويصف ملكها، حيث يقول: "الملك هو أعظم ملوك السودان المسلمين وأشدهم بأساً، وأعظمهم مالاً، وأحسنهم حالاً، وأقهرهم للأعداء، وأقدرهم على إفاضة النعماء"[32]. ثم يزيد تفصيلا في ذكر ملكها وحبه لدينه، فكتب نقلا عن ابن أمير حاجب يقول: "ورأيت هذا السلطان محبا للخير وأهله، وترك مملكته واستناب بها ولده محمدا، وهاجر إلى الله ورسوله فأدى فريضة الحج، وزار النبي صلي الله عليه وسلم وعاد إلى بلاده على أنه يقرر لابنه الملك، ويتركه له بالكلية، ويعود إلى مكة المعظمة، ويقيم مجاورا بها، فأتاه أجله،رحمه الله تعالى"[33].

على العموم، نجد أن العمري لم يترك معلومة تساعد على معرفة هذه المملكة إلا وذكرها، نقلاً عن زوارها والوافدين عليها، كما أنه يفصل في المحاصيل الزراعية وحيواناتهم[34]. وهذا الأمر ينطبق على مناطق أخرى تناولها العمري في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار".

وذات الأمر ينطبق على البكري في كتابه "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، إذ على الرغم من أنه لم يقم بزيارة بلاد السودان إلا أننا نجد حرصه على عدم ترك أي شاردة أو واردة من دون الإشارة إليها، فهو يفصل كثيرا في المعلومات التي تخص مناطق بلاد السودان، ونجده يجتهد في تحديد المسافات التي تفصل بينها، إلى جانب إبراز أهمية المدن وما تشتهر به من أعمال وتجارة[35]. وعلى سبيل المثال كتب يقول: "وإذا سرت من غانة تريد طلوع الشمس تسير في طريق معمورة بالسودان إلى موضع يقال له أوغام يحرثون الذرة وهو عيشهم ثم نسير من هناك أربعة أيام إلى موضع يقال له راس الماء، وهناك تلقى النيل خارجا من بلاد السودان وعليه قبائل من البربر مسلمون يسمون مداسة"[36].

كما ركزت كتب الرحلات على ذكر طباع أهل السودان وصفاتهم، ففي سياق حديثه عن تأثير الشمس في الأقاليم، يذكر القزويني في كتابه "عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات" بعضا من صفات سكان بلاد السودان، حينما كتب يقول: "ومن عجيب تأثيرها في الحيوانات ان تجعل أهل البلاد القريبة عن مسامتتها كبلاد السودان الذين هم في الإقليم الأول سودا محترقين، وتجعل وجوهم من شدة الحرارة قحله، وجثثهم خفيفة، وأخلاقهم وحشية شبيهة بأخلاق السباع"[37].

خلاصة القول، لقد بذل الرحالة العرب المسلمين من خلال كتاباتهم كل ما بوسعهم من تقديم معلومات مفيدة للقارئ. وهذه الرغبة جعلتهم يبذلوا جهود استثنائية للحصول على المعرفة، وما كثرة تجوالهم إلا دليل على ذلك، وذلك للتعريف بأقاليم الأرض، وخاضوا في سبيل المعرفة والتعريف، تجارب قد يستحيل على المرء أن يمر بها ووصلوا بنا إلى مناطق نحن بأمس الحاجة إلى كشف خفاياها اليوم. وكان كل رحالة يجوب مناطق وأقاليم تهمه، فيعرف بها وبطبيعتها، وطبيعة سكانها، صحيح أن بعضهم شرّق وغرب في الأراضي العربية والإسلامية، لكن خطواتهم ساقتهم شمالاً وجنوباً إلى معالم يعسر الوصول إليها، ولاسيما بلاد السودان التي نتعطش إلى معرفتها كتعطش سكانها إلى الماء.

الهوامش:

[1]- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي. القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002، ط2، ص ص: 17-21.

[2]- نقلا عن: حسين محمد فهيم، أدب الرحلات. الكويت، عالم المعرفة، 1989، ص 86.

[3]-المرجع نفسه، ص: 17.

[4]- ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار احياء التراث العربي. بلا تاريخ نشر، ص: 407.

[5]-إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي. القسم الاول، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، جامعة الدول العربية، بلا تاريخ نشر، ص ص: 297-298.

[6]-المقدسي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن، مطبعة بريل، 1877، ص: 5.

[7]-فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص: 73.

[8]-المرجع نفسه، ص ص: 74-75.

[9]-اغناطيوس كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص: 297.

[10]-محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق في آثار ابن سعيد المغربي ورحلاته المشرقية وتحولات عصره. بيروت، دار المغرب الاسلامي، 1992، ط1، ص ص: 193-194.

[11]-محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص: 124.

[12]-فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص: 76.

[13]-محمد عبد الغني حسن، الشريف الادريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام. القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر، 1971، ص: 125.

[14]-فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص: 76.

[15]-صلاح الشامي، الاسلام والفكر الجغرافي العربي. الإسكندرية، منشاة المعارف، 1977، ص10-11.

[16]-حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب. القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1976، ص 10.

[17]-الاصطخري أبو القاسم ابراهيم بن محمد الفارسي، المسالك والممالك. تحقيق: جابر الحيني، القاهرة، ادارة الثقافة العامة، 1958، ص 3.

[18]-المصدر نفسه، ص: 22.

[19]-المصدر نفسه، ص: 25.

[20]-ابن الفقيه أحمد بن محمد الهمداني، مختصر كتاب البلدان. ليدن، مطبعة بريل، 1302هـ، ص: 59.

[21]-المصدر نفسه، ص: 317.

[22]-ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض. بيروت، مكتبة الحياة، 1992، ص: 100.

[23] -ابن الفقيه، المصدر السابق، ص: 65.

[24] -المصدر نفسه، ص: 68.

[25] -القزويني زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد. بلا معلومات اخرى، ص 10.

[26] -المصدر نفسه، ص 11.

[27] -الاطخري، المصدر السابق، ص: 25.

28 -العمري ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج:1، تحقيق: أحمد زكي باشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1924، ص 68-69.

29 -المصدر نفسه، ص: 107.

30 -المصدر نفسه، ص: 107-108.

31 -المصدر نفسه، ص: 107 .

32 -المصدر نفسه، ص: 108.

33 -المصدر نفسه، ص: 120.

34- للتفاصيل ينظر: المصدر نفسه، ص: 129،110 .

35 -للتفاصيل ينظر: البكري أبي عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، بلا تاريخ نشر، ص 172-178.

36 -المصدر نفسه، ص 180.

37 -القزويني زكريا بن محمد بن محمود الكوفي، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات. بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 2000، ط1، ص: 29.